كتاب كاتمة سر العذراء

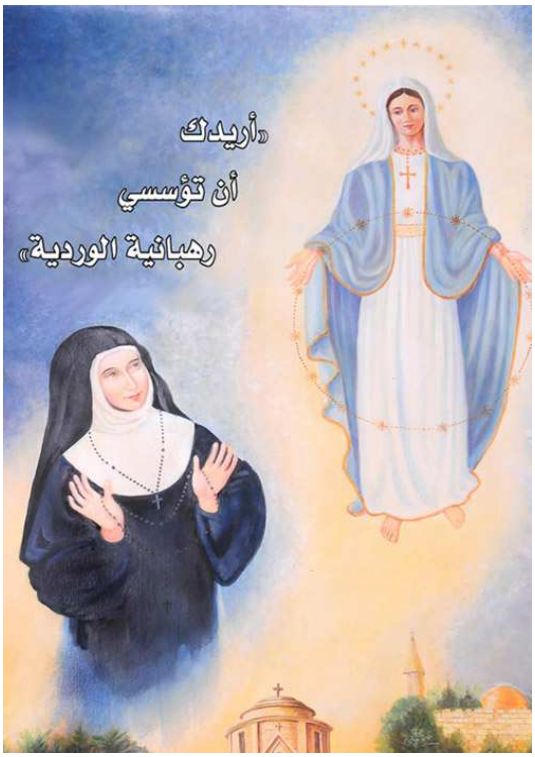

المقدمة

أرسل البابا بيوس التاسع إلى القدس، عام **1848**، بطريركاً شاباً عمره **34** عاماً، اسمه "يوسف فاليرغا". كان يتمتع بشخصية فذة وذكاء حاد وخبرة واطلاع بشؤون الشرق، بسبب خدمته الطويلة في العراق. وكانت مهمته إنعاش كنيسة القدس، لتؤدي دورها الروحي والاجتماعي والثقافي، في أقدس بقعة من العالم.

وقد أنشأ رعايا جديدة، إلى جانب الرعايا التقليدية القائمة، والتي كان يخدمها بإخلاص أبناء القديس فرنسيس الأسيزي. ودعت الحاجة إلى كهنه وراهبات من شبان هذا البلد وشاباته، لتأمين خدمة الرعايا الجديدة. ولسمو هذا الهدف النبيل، أسّس البطريرك عام **1852** معهداً كهنوتياً، ما زال يؤدي رسالته حتى هذا اليوم. وفي عهد خلفه، البطريرك براكو، شاهدت النور جمعية رهبانية عربية تحمل اسم الوردية.

ونشأت رهبانية الوردية نتيجة جهود بشرية وتدخل سماويّ في آن واحد. ذلك أن عدة فتيات من القدس، عرضن الفكرة على الأب يوسف طنوس، أحد كهنة البطريركية اللاتينية، وقدمت له إحدى راهبات القديس يوسف واسمها الأخت "ماري الفونسين" غطاس، مشروعاً جريئاً وواضحاً نال إعجاب الكاهن. ووراء تلك المبادرة، كانت تقف السيدة العذراء التي ظهرت للام "ماري" عدة مرات وطلبت منها إنشاء الجمعية الرهبانية نفسها.

وستجدون في هذا الكتاب مثالا بيّناً، على أن الله تعالى يتدخل في تاريخ الإنسان، ليجعل منه تاريخ خلاص، وستدركون هذا الأمر أثناء قراءتكم حياة الراهبة. التي شاركت في التأسيس، والتي يمكن أن ندعوها حقاً: " كاتمة سرَّ العذراء".

الفصل الأول

بنوك كفروع زيتون حول مائدتك

نروي لكم سيرة فتاة عربية من القدس اسمها "سلطانة" أبصرت النور في الرابع من تشرين الأول عام **1843** كان والدها دانيل غطاس، رب أسرة تقية وممارسة للإيمان، عمل نجارا ليأكل من عرق جبينه مع زوجته "كاترينا" وبناته الثلاث وأولاده الخمسة.

وكان يطيب له، بعد عودته مساء إلى البيت، في ختام يوم حافل بالعمل، أن يصلي المسبحة مع عائلته وربما مع بعض الجيران، أمام تمثال السيدة العذراء، وكان يوقد لها الشموع ويحرق البخور. أما زوجته فكانت مثالا في التقوى والنشاط والنزاهة والمواظبة على حضور القداس كل يوم. وتميّزت بصفات المرأة الفاضلة التي ورد ذكرها في سفر الحكمة. اعتنقت بناتها الثلاث الحياة الرهبانية. وأصبح ابنها أنطون كاهنا للرب.

الأميرة الصغيرة :

نالت "سلطانة" العماد بعد شهر ونصف من ميلادها ودعيت "مريم" وعاشت طفولة عادية لا توحي بالنعم الخارقة التي ستنالها فيما بعد. إلا أن هذه الفتاة الصغيرة المؤدبة كانت أكثر حياء من أخواتها وبقية رفيقاتها. لازمها هذا الحياء حتى مماتها، وتحوّل تدريجيا إلى تواضع عميق، جعل الناس يحبونها ويقدرونها ولما كانت في الخامسة من عمرها، عام **1848**، افتتحت راهبات القديس يوسف أول مدرسة للفتيات في القدس، فأسرع الناس لتسجيل بناتهم، ومن بينهم أهل "سلطانة."

وفي سن التاسعة نالت "سلطانة" سر التثبيت مع **149** فتى وفتاة، وأصبحت أقوى من ذي قبل في مواجهة صعوبات الحياة والعيش وفقا للإنجيل.

وكم تأثرت عندما شهدت حفلة دينية في كنيسة المدرسة وسمعت غبطة البطريرك فاليرغا يبارك اثنتين من زميلاتها الكبار وهو يضع على رأسيهما الوشاح الخاص بطالبات الرهبانية قائلا: " إلزما الأمانة فأنتما أول المدعوات إلى الحياة الرهبانية في هذه المدينة المقدسة وستقتفي أثاركما فتيات أخريات.
وكانت " سلطانة " تنظر إلى زميلتيها بإعجاب. فقالت في نفسها: "وأنا أيضا أريد أن أصبح راهبة".

صعوبات في الطريق

كان على كل شابة تريد الترهب، أن تغادر الوطن إلى فرنسا لمتابعة الدراسة. وكان ركوب البحر مجازفة كبيرة، وكان الذهاب إلى الغرب تحديا لتقاليد العائلات المسيحية في القدس. وخشيت "سلطانة " أن تكاشف والديها بدعوتها الرهبانية، لعلمها المسبق بالجواب. وعندما أنهت دروسها، كان لا بد من طرح الموضوع، لتقرير مصيرها قبل أن يطلب أحد يدها للزواج. ولما علم والدها برغبتها، رفض فكرتها رفضا باتا لا رجوع عنه. فأخذت تصلي إلى العذراء بحرارة، علَّ والدها يتراجع عن قراره .

العذراء تتدخل

وأثبتت العذراء أنها جديرة بتلك الثقة. فذات يوم، كان والدها النجار ممسكا زجاجة سائل سريع الاشتعال، أفلتت فجأة من يده، وتلقتها النار، فانفجرت في وجهه ويديه. ولم ينج من الموت إلا بأعجوبة. وكرّست سلطانة وقتها لخدمة والدها، ومنحته من عنايتها واهتمامها، ما تعجز عنه أفضل الممرضات. وكان دانيل يقول لنفسه أثناء لياليه الطوال: "ربما أرادت السماء أن تقتص مني لإعراضي عن تلبية رغبة ابنتي". وكان هذا الوالد سخياً أضعاف ما كان عنيدا. وسألته مرة بأدب: "يا أبت، إذا منّت عليك العذراء بالشفاء، أفتسمح لي بدخول الدير؟". فأجاب: "لقد فعلت، لأني وعدت العذراء بأن أمنح أبنائي الحرية في دخول الدير إذا شاؤوا ذلك".

الفصل الثاني

على خطى المسيح

دخلت سلطانة الدير وسمح لها رؤساؤها بشكل استثنائي أن تجتاز مرحلة الابتداء في القدس بدلا من فرنسا. وفي عام **1860** لبست الثوب الرهباني على جبل الجلجلة، وصار اسمها الجديد "الأخت ماري الفونسين" دلالة على بدايتها حياة جديدة، الا أننا سنسميها "الأخت ماري" أو "الأم ماري" على سبيل الإختصار. وشـــرعت تدرس قوانين الرهبانية وروحانيتها وتتأمل في سر الفداء، وتكثر من الصلاة والمطالعات الروحية. وكانت سعيدة كلما ذهبت للصـــلاة إلى كنيسة القيامة. وعلى الجلجلة أبرزت نـــذورها الـــرهبانية. وخـــلال الاحـــتفال قـــدّم لـــها البطريرك صـــليبا، علقته عـــلى صـــدرها، عـــلامة تكرسها للمسيح. ولم تتخلَّ عن هذا الشعار حتى مماتها .

ولما أطل العام الدراسي الجديد عُيّنت الأخت "ماري" معلمة التربية الدينية لجميع صفوف المدرسة. ونجحت أيما نجاح في جعل طالباتها يحببن الله والقريب، وكان لا بد لمن ينظر إليها وهي تصلي أو يسمع إليها وهي تتحدث عن العذراء من أن يقع تحت تأثيرها، فلا يمل الإصغاء إليها.

وكانت تجمع بعد الدوام المدرسي صفوة طالباتها للصلاة، والتأمل وأخذ المقاصد العملية. وأطلقت على الفرقة اسم "أخوية الحبل بلا دنس" وأسَّست فيما بعد فرقة مماثلة للسيدات.

في جوار المهد

وجاءها أمر الإنتقال إلى بيت لحم. وكانت رعيتها أكثر أهمية من رعية القدس، وفيها مدرسة مزدهرة. وأظهرت في الموقع الجديد النشاط المتوقع منها، ونجحت مع طالباتها، وأنشأت لهن فرقة مماثلة لما أنشأته في القدس. وكانت تجتمع بهنّ في المدرسة أو في مغارة الحليب. وكانت غرفة التدريس محور نشاطها الرئيسي، لأنها أدركت أن عقول الصغار أكثر مرونة من الكبار لقبول حقائق الدين، وأن قلوبهم أكثر براءة وطهارة. وهم يحبون الله ويخدمونه بعفوية أعظم. وفي مقدور المربي الحاذق أن يغرس فيها بذور الفضيلة كما يشاء.

الفصل الثالث

أمينة سر العذراء

كانت الأخت "ماري" تشعر برغبة كبيرة تدفعها إلى زيارة القربان الأقدس كلما استطاعت إلى ذلك سبيلا. وفي الكنيسة كانت تفحص ضميرها عن النهار الذي مضى وتجدد مقاصدها أو تصلي المسبحة.

وفي يوم عيد الغطاس عام **1874**، وبينما كانت تصلي البيت الخامس من أسرار الحزن في كنيسة المدرسة، تركّز تفكيرها على العذراء أم الأوجاع، وشعرت أن قلبها أصبح شعلة تضطرم بحب البتول، وتجلّى لها بغتة نور بهيّ، وظهرت وسطه العذراء القديسة باسطة يديها. شاهدت الأخت "ماري" على صدرها صليباً تتدلى منه مسبحة دائرية، تمر من وسط يديها الممدودتين وتنزل حتى أسفل ثوبها. وكان يتلألأ على رأسها تاج مرصع، بخمس عشرة نجمة. وعندما همَّت الأخت "ماري" الاقتراب من العذراء فقدت حواسّها، وبقيت على تلك الحالة من الساعة التاسعة صباحاً حتى الواحدة من بعد الظهر. ولمّا أفاقت، وجدت نفسها في حالة هدوء وتعزية روحية فائقة الوصف، ورغبة شديدة في ممارسة الخيروالتقشف.

العذراء تصرّح

وظهرت لها العذراء مرة ثانية في نهاية شهر أيار، في المكان ذاته وبنفس الهيئة السابقة. وقرأت هذه المرة فوق إكليل العذراء هذه الكتابة: "بتولات الوردية السرِّية". وفي ظهور آخر، مساء عيد الغطاس من عام **1875**، ظهرت العذراء في جمال أبهى من المرتين السابقتين. فشاهدت صفين من البنات إلى يمين السيدة وإلى يسارها وهيئتهن كهيئتها وثيابهن كثيابها، ولمحت هذه الكتابة **:**"بتولات الوردية، رهبانية الوردية". تكلمت العذراء هذه المرة، لا بلغَّة أهل الأرض بل بلغَّة أهل السماء حيث للكلمات رنين في القلب لا في الأذن، فسمعتها تقول: "أريد أن تبدئي رهبانية الوردية".

العذراء تطلب

وكانت العذراء تعمل على محور آخر، فألهمت طالبات من أخوية "الحبل بها بلا دنس" فكرة إنشاء رهبنة محلية للفتيات العربيات. فأكثرن من أعمال الإماتة والصوم والمحبة للحصول على تلك النعمة. وجاءت إحداهن تهمس في أذن الأخت "ماري" شيئا يمّت بصلة إلى ذلك المشروع. فاحتارت الراهبة كيف تستطيع أن تلبي طلب العذراء ورغبة الفتيات**.**

أتتحدث مع رئيستها أولا أم مع البطريرك أم مع مرشد المدرسة؟ وهل سيحملون كلامها على محمل الجد ؟ ومن أين لها الشجاعة وهي الراهبة الخجلة منذ نعومة أظفارها فتذهب لمقابلة رؤسائها في مشروع على هذا المستوى الرفيع؟ وفي إحدى الليالي رأت العذراء تقبض على يدها بشدة وتقول لها: "أريدك أن تؤسسي رهبانية الوردية، أما حان الوقت لتفهمي؟" ثم أمرتها أن تمضي لمقابلة البطريرك، وأن تبلِّغه تلك الرسالة، لأن إرسالياته ستزدهر بالوردية**.**

مقابلة البطريرك

وأثناء زيارتها للبطريرك منصور براكو المعروف عنه بالورع والتقوى، أطلعته على أمور كثيرة تخص الأبرشية، كانت قد سمعتها من العذراء. ولكنَّ حياءها الشديد عقل لسانها عندما أرادت تبليغه مشروع رهبنة الوردية. وفي نهاية المقابلة، طلب إليها رئيس الأبرشية أن تسترشد بكاهن ذي خبرة في الأمور الروحية، هو الأب أنطون بللوني، المعروف بأبي اليتامى. فمضت إليه وأطلعته على رسالة العذراء والمشروع الجديد.

الوردية كنزك

طلب الأب "بللوني" من الأخت ماري أن تقيم "تساعية" صلاة لأجل هذه النية. وفي اليوم التاسع شاهدت في صلاتها مريم العذراء، يحيط بها جمهور غفير من الفتيات، يرتدين ثوباً رهبانياً أزرق وأبيض على غرارها، وبعد أن نظرت إليها السيدة بعطف ومودة سألتها:

"متى تبدئين تأسيس رهبانية الوردية؟ تشجعي وتممي أمري. أما فهمت؟ إني أريد رهبانية الوردية، رهبانية الوردية. إنها مزمعة أن تنزع من الأرض كل شرٍّ وبلية". فأجابت الراهبة: "يا أمي، امنحيني الوسائل اللازمة، فاني مستعدة". فأردفت العذراء: "إن الوردية كنزك، اتكلي على رحمتي، وثقي بالجود الإلهي، وأنا أعينك".

الفصل الرابع

المحنة

كانت صعوبة الأخت "ماري" الكبرى هي الانفصال عن راهبات مار يوسف للالتحاق بالرهبانية الجديدة. وكيف تترك جمعيتها التي أحبتها بكل جوارحها؟ وأنّى لها الشجاعة أمام رئيستها ورفيقاتها اللواتي لا يعلمن شيئاً عن ظهورات العذراء لها؟

ومن ناحية أخرى غادر الأب "بللوني" البلاد عام **1876** لانشغاله في تأسيس جمعية رهبانية للعناية بالأيتام. واضطرت الأخت "ماري" لاسترشاد كاهن رعية بيت لحم، ولما أوضحت له رسالة العذراء استهزأ بها قائلا: "تلك أحلام وخفة عقل". وحاول إقناعها أن الشيطان هو الذي يظهر لها لا العذراء. وأمرها أن ترسم أمام الرؤيا إشارة الصليب المقدس. وحدّد لها عدد المناولات الأسبوعية. ومنعها من الدنوّ إلى هياكل العذراء كيلا تتجدد تلك الرؤى المزعومة.

صدق الأخت ماري

كان راعي طائفة بيت لحم يجهل حقيقة الأخت "ماري". ولذا صعب عليه تصديقها ويا ليته عرف كم كانت زائرته أهلا للثقة بفضل ما عندها من هدوء الطبع ورصانة السلوك واتزان العقل واستقامة السيرة بشهادة كلّ من عرفها. أما عن تواضعها فحدث ولا حرج، ففي كل المناسبات كانت تتجنب الظهور وتؤثر الصمت.

والذي يزيد في تصديقنا لها، ما عانته في سبيل الرسالة التي حمّلتها إياها العذراء. فمن الصعب جداً أن يتألم إنسان من أجل قضية كاذبة، لا يؤمن بها ولا مصلحة له من ورائها. وكلما قويت المحنة وازداد الرسول عنادا، ازدادت احتمالات صدقه ونزاهته. ولذا أصبح الصليب في الديانة المسيحية العلامة المميزة لمنجزات الله. وعن هذه القاعدة العامة، لم تشذّ الأخت "ماري"، ولا الجمعية الرهبانية التي ستظهر عما قليل إلى حيزّ الوجود.

الفصل الخامس

رؤى نبوية

بعد أن انتهى زمن المحنة بدأ فصل جديد في حياة الأخت "ماري". فمع بقائها راهبة في جمعية القديس يوسف، جعلتها العذراء تعيش بالرؤى حياة راهبة الورديّة.

رأت وهي تصلي، ديرا مستديراً على شكل مسبحة وسيدة الوردية على سطحه، وتحيط بالدير خمس عشرة نافذة، على كل منها راهبة وردية تحمل اسم سرّ من أسرار المسبحة الخمسة عشر. وكان اسم الأخت "ماري" على النافذة العاشرة، فاقترن اسمها بسرّ موت المسيح الذي هو العاشر من أسرار الوردية. ستكون إذاً حياتها موسومة بالألم والصليب. فخافت الأخت "ماري" من الرؤيا ونظرت إلى المستقبل بفزع وهلع. ولكنّ شعورها قد تلاشى عندما تذكرت أن الله يرسل مع الداء الدواء، ومع الدمعة العزاء، ومع الصليب القدرة على رفعه. وبعد تلك الرؤيا أفعمتها العذراء بهجة ونورا.

وفي رؤى أخرى عاشت الأخت "ماري" الحياة اليومية في دير الوردية. ومن حسن حظها أن المرشدة التي أدخلتها الدير، ورافقتها طيلة الزيارة، لم تكن سوى العذراء نفسها. وشاهدت خلالها كل عجيب مستحب. كانت راهبات ذلك الدير سعيدات كل السعادة، ويقسمن أوقاتهن بين الصلاة والتأمل والأعمال اليومية، وعلى رأس القائمة التعليم الديني للطالبات.

وتذكرت من الزيارة أكثر ما تذكرت اعتكاف الراهبات على صلاة المسبحة فرادى وجماعات. فكنّ يتلون كل يوم معاً أسرار الفرح والحزن والمجد. كما طلبت العذراء أن تتلى الوردية الكاملة بالتناوب، بحيث تتناوب الراهبات ليلا ونهارا على تلاوة السبحة الوردية، كل في دورها المحدد خاشعة تصلي مسبحتها. وكتبت الأخت "ماري" تقول:"كنت أظن أني أسكن الدير منذ زمن طويل، ورأيت مذبحاً مزينا، وراهبة ساجدة أمامه، تتلو المسبحة ثم تأتي غيرها وتفعل فعلها بالمناوبة ليل نهار، وكانت أمي البتول تكرر القول: "من الضروري أن يكون في الدير وردية دائمة، تتلوها الراهبات والبنات. ومن ناحية أخرى كانت الراهبات يصمن الأربعاء والسبت صياماً خاصاً اكراما للوردية."

الفصل السادس

بين الحلم والحقيقة

مــرّت الأيـــام، وكان على الراهبة تلبية أوامر العذراء. وكم صعب عليها الإنفصال عن جمعيتها الرهبانية، ومفاتحة رؤسائها بالمشروع الجديد. ولجهلهم ظهورات السيدة، كانت تتوقع أن يتهموها بالفرار من الخدمة والخيانة.

وكان ردّ فعلها على ذلك أنها طلبت من العذراء مطلبين:
أولا: أن تعاونها أختها حنة في المهمة الجديدة، لأنها أجرأ منها، وتتمتع بروح قيادية عالية.

وثانياً: أن تعيّن لها مرشداً حكيما ومسموع الكلمة، تنقل إليه الرسالة، فيساندها في تنفيذ المشروع لئلا تعاني مرة أخرى من الإرشاد السطحي المرتجل، الذي دفعت ثمنه غاليا فيما سبق. وفي

إحدى الرؤى، وبينما كانت تصلي لطلب مرشد كفؤ، شاهدت الأب يوسف طنوس، وعلى رأسه إكليل مرصع بالنجوم، وسمعت هاتفاً داخلياً يقول لها هو المرشد الذي اختارته السماء.

الأب يوسف طنوس

ولد في الناصرة عام **1838**، وكان من أوائل الطلاب الذين أوفدهم البطريرك فاليرغا إلى غزير في لبنان، لدراسة العلوم الكهنوتية. وسيم كاهناً عام **1863**. وكرّس الفترة الأولى من حياته لتنشئة طلاب الكهنوت في المعهد الاكليريكي، فأظهر كفاءة عالية. ثم عينه البطريرك فاليرغا أمين سرِّه في بيروت والقدس، ثم في روما أثناء انعقاد المجمع الفاتيكاني الأول. وكانت الأخت "ماري" تعرفه معرفة جيدة وتقدّر مؤهلاته العالية، وشخصيته الفذة عندما كان مرشدا لأخوية بنات مريم، التي كانت قد أسستها في القدس قبل سنوات. وكان يتمتع بصفات إنسانية أصيلة جعلت الجميع يثقون بشخصه.

على طريق التأسيس

طلبت إلى الأب يوسف عدة فتيات من القدس في مقتبل العمر، إنشاء جمعية رهبانية عربية. أما فتيات بيت لحم فكنّ قد عرضن الطلب نفسه على كاهن بيت لحم، فنلن منه جوابا سلبياً. وبما أن شخصية الأب يوسف كانت تختلف عن شخصية سابقه اختلافا كبيرا فقد استرجع ثقتهنّ، وجعلن يطالبن بتحقيق المشروع.

كان الأب يوسف مقتنعا ومتحمسا للفكرة لأنه قدَّر ما يمكن أن تقوم به رهبانية محلية لرفع مستوى المرأة العربية، دينياً وأخلاقياً وإنسانياً، وجعلها قادرة على تربية أولاد صالحين. وجـــاء تطـــوع الفتيات المقدسيات في أوانه. وكانت الرعايا التي أسستها البطريركية اللاتينية تطلب راهبات لملء الفراغ. ولا نحسب ذلك التطوع محض مصادفة، بل أصبح حقيقة أن الروح القدس هو الذي الهمهنّ هذه الفكرة من أجل تحقيق نفس الأهداف التي تأسست من أجلها البطريركية اللاتينية في القدس عام **1848**. وبينما كانت هذه الأفكار تدور في خلد الأب يوسف، كان لا يزال يجهل أمورا كثيرة منها: من سيؤسّس الرهبانية الجديدة؟ وما هي روحانيتها واسمها وأهدافها وقوانينها؟ أين مقرها؟ ومن سينفق عليها؟

وفي تلك الفترة الحرجة، أقبلت اليه الأخت "ماري" حاملة رسالة هامة، فيها جواب العذراء على

أسئلته. فوجئ الكاهن أولا. ولما اطمأن إلى رجاحة عقل الرائية، واقتنع بصحة الرؤيا، طلب منها أن تكتب كل ما شاهدته وسمعته من العذراء، بشأن الرهبانية الجديدة .

الفصل السابع

نشأة رهبانية الوردية

كانت خمساً الفتيات اللواتي قررن في البداية تكريس ذواتهن لله في الرهبانية الجديدة. وكنّ من عائلات القدس العريقة، وهذه اسماؤهن: ريجينا كارمي، عفيفة أبو صوان، جليلة عبيس، حنة غطاس وأمينة حبش. وقد واجهن من الأهل والأقارب مقاومة عنيفة. صحيح أن الناس كانوا يحترمون الراهبات ويقدّرون عملهن في المدارس ولكن كانوا يرفضون أن تصبح بناتهم راهبات.

موقف شائع

وكان من أكثر الناس اعتدالا المهندس داود كارمي، والد ريجينا التي كان لها من العمر عشرون عاما تقريبا. ولما علم بمشروع الأب يوسف، اتخذ موقفا صريحاً وحازماً. ولم يمانع في انشاء تلك الرهبانية، ولكنه لم يوافق على انضمام ابنته اليها. وفي اليوم الذي عزمت فيه ابنته مكاشفته رغبتها، أخــذ الدم يغلي في عروقه. فلما دخلت مكتبه استقبلها بجفاء:

– ماذا تريدين؟

– أبي، إن مشيئة الله واضحة أمامي. فهو يدعوني إلى الحياة الرهبانية، لذا أرجو موافقتك وبركتك الوالدية.

احتدم في داخله صراع مرير، وراودته أفكار متناقضة. كان يحبُّ ابنته، فلم يشأ معاكستها، ولكنه استسخف رأيها في الابتعاد عنه، وقوة إصرارها على ترك البيت الوالدي، حيث كانت سبب سعادة

العائلة. فمن يعتني بالبيت ولا سيما أن زوجته قد توفاها الله منذ عهد قريب؟ الا أن إرادة الرب كانت الأقوى في ضمير ذلك الرجل المستقيم، فهدأت أفكاره تدريجيا وأجاب:

– ما دامت الأمور تجري على هذه الحال، أعدّي لي قائمة بما يلزمك لدخول الدير.

وبعد لحظـــات تناول ورقة من يد ابنته ومضى من فوره إلى المدينة واشترى الحاجات المطلوبة كلها حتى القلم والمبراة.

الدير المؤقت

في 24 تموز عام 1880، التأمت الأسرة الرهبانية الصغيرة مع الأب يوسف طنوس، لمباركة البيت الجديد، الواقع بين البطريركية اللاتينية ودير المخلص. فقبّلن أعـــتاب المنزل وأنشدن نشيد العذراء "تعظم نفسي الربّ". وكان البيت فقيرا للغاية، واقتصرت الوجبة الأولى على الخبز والصعتر. ولكنَّ الفرح كان يغمر قلوبهنَّ.

وفي اليوم التالي، أتى إلى الأب يوسف رجال الطائفة، ليثنوه عن عزمه، وتنبأوا أن المشروع لن يستمرّ أكثر من شهر يؤول بعده إلى الفشل، فينال من صيت الكاهن المشرف عليه. الا أن محاولاتهم باءت بالفشل.

وكنَّ يملأن النهار بالعمل الجاد لكسب لقمة العيش، ودفع أجرة البيت. وارتضين حياة الفقر والحرمان بروح إنجيلية، لأنه يمنح شرف الاقتداء بالسيد المسيح الذي عاش فقيرا على أرضنا. وكانت سخرية أهل القدس على مختلف مذاهبهم، تزيد الفتيات رسوخا وتمسكا بالمبدأ.

يوم خالد

وفي 15 كانون الثاني 1881، منح البطريرك أولئك الفتيات الثوب الرهباني في احتفال خاص بيّن أثناءه عظمة التكريس لله في هذه البلاد المقدسة. وفي مساء ذلك اليوم، أقبلت الراهبات إلى كنيسة البطريركية لحضور تساعية عيد الميلاد، فاعترت الدهشة جمهور المصلين لرؤيتهم راهبات جديدات في زي أزرق، وياقة بيضاء، ووشاح رأس أسود. فتعالت بين الصفوف همسات الإستغراب ثمّ الإعجاب: " إنَّهن راهبات الوردية." وبعد بركة القربان، اقبل المصلون يقدمون لهنّ التهاني. ومنذ تلـــك اللحظـــة تلاشت كل معارضة.

وكانت المتشحات بالثوب الرهباني، ثماني راهبات، وانضمت اليهنّ راهبة تاسعة هي كاترينا صوان. ولكن يا تُرى، مَن ستكون القادمة العاشرة؟

الراهبة العاشرة

كانت الأخت ماري تتشوق إلى الإلتحاق بهذا الفوج من الراهبات الذي كان يضم أختيها حنة ورجينا. وشعرت رئيستها المحلية بالخطر لجهلها أن المشروع كان من العذراء. ومن أين لها أن تعرف بأن راهبتها كانت هي المؤتمنة على تنفيذه؟ فخافت عليها أن تستسلم لتجربة الالتحاق باختيها، فقرّرت نقلها مؤقتاً إلى يافا. أطاعت الأخت "ماري" ومن هنالك أعدّت كتاباً موجهاً إلى البابا لاون الثالث عشر تسأله الموافقة على انتقالها إلى الرهبانية الجديدة. وطلبت من البطريرك منصور براكو – وكان آنذاك في روما – أن يكون لسان حالها. تأخر الرد ثلاث سنوات، ولكن النجاح كان حليف الاصرار والصبر. فسمحت روما أخيرا للأخت "ماري" أن تنضم إلى راهبات الوردية. وكانت، في ترتيب دخولها الدير الراهبة العاشرة. وتذكرت ما شاهدته في إحدى الرؤى وهو أن اسمها كان مكتوباً على النافذة العاشرة من نوافذ دير الوردية، ومقروناً بالسّر العاشر من أسرار المسبحة، الذي يذكر صلب يسوع وموته.

التكريس لله

وعد الإنسان لله التزام ثابت وأزلي، ولا بدّ من الاقتناع به قبل الإقدام عليه. وقبل أن تلتزم الراهبات بالنذور الثلاثة، وهي نذر العفة والفقر والطاعة، يمضين سنة أو سنتين في التفكير والصلاة ودراسة قوانين الرهبانية. وتسمّى تلك الفترة مرحلة الابتداء.

وعيّن الأب يوسف طنوس للراهبات المبتدئات معلمة قديرة، هي الأخت روزالي ناصر، من راهبات الناصرة. وفي السابع من آذار عام **1885**، أبرزت المبتدئات النذور الرهبانية الثلاث، وتكرسن للرب والسيدة العذراء، وأخذن ينتظرن التعيين في إرسالياتهن الجديدة.

الفصل الثامن

مجندات تحت لواء السيدة

تعددت إرساليات البطريركية اللاتينية وتنوّعت، وبدأت مدارسها وكنائسها تظهر إلى حيز الوجود منذ **1854**. وكان البطريرك براكو وكهنته ينتظرون بفارغ الصبر، اللحظة السعيدة التي تشرع فيها الراهبات في خدمة الإرساليات.

وذات يوم، وقد أشرفت مرحلة الابتداء على النهاية، زارهن البطريرك فسألهن عن استعدادهنّ للرسالة :

– ماذا ترين لو أرسلناكن إلى الكرك؟

وكانت الكرك أنأى الإرساليات، وتقع على مشارف البادية. وكان من المتوقع أن يلقي سؤاله الخوف في روع المبتدئات، بسبب البعد وخشونة العيش، في تلك البيئة الصحراوية الفقيرة، حيث كانت تصلهن أخبار المرسلين وبطولاتهم. واستيقظ سخاؤهنّ. فأجابت الأخت ريجينا كارمي بحماس وعفوية:

– يا صاحب الغبطة، نحن مستعدات للذهاب إلى أقصى أطراف البلقاء.

وكانت الأخت ريجينا تظن أن البلقاء أبعد من الكرك. وفهم البطريرك مقصدها النبيل، واستعدادها للذهاب إلى أقصى أرجاء المسكونة اذا اقتضى الأمر.

لكن ساعة الذهاب إلى شرق الأردن لم تحن بعد، فاتفق البطريرك والأب يوسف طنوس على إرساء قواعد الرهبانية أولا في فلسطين. وتقرّر أن تمضي الأختان ريجينا كارمي ومريم الشويري إلى نابلس، والأختان لويزا أبو صوان واليصابات بطرس إلى الزبابدة، والأختان تريز حبش وفيلومين عبيس إلى بير زيت، والأختان ماري ألفونسين وكاترين أبو صوان إلى يافا الناصرة، على أن تبقى الأخت حنة دانيل في القدس، لمساعدة الأم روزالي، لقبول المرشحات الجديدات وإعدادهن للحياة الرهباني.

الذين يزرعون بالدموع يحصدون بالترنيم

كانت حياة الإرساليات في بدايتها، صعبة ومريرة، فالطرق إليها وعرة، وقطاع الطرق يتربصون بالمارة، وأديار الراهبات ضيقة ومتداعية البنيان. وفي معظم الأحيان، كان البيت مبنياً من التبن والطين ويحوي غرفتين: واحدة لسكنى الراهبات، والأخرى مدرسة للبنات. أما عن مضايقات السلطات التركية ومنعها بناء الكنائس والمدارس، فحدّث ولا حرج. ثم ان السكان بسبب غياب الكهنة عنهم لفترة طويلة كانوا يعانون من ضعف في الإيمان، وتراجع في الأخلاق، واكتسبوا عادات غير مسيحية. أضف إلى ذلك قلة الموارد وأزمة الخبز والماء .

الا أن كل هذه المعاكسات، لم تكن شيئا يذكر أمام حماس الراهبات واندفاعهن للخدمة. وكان يعوض عن هذه السلبيات، فرح الشعب بهنّ وتعاونه معهنّ. وكان لدى الجميع جوع وعطش إلى سماع كلام الله، وفهم أسرار الملكوت والإنجيل. وكان العمل الأول للراهبات هو التعليم الديني في مدارس البنات، وتلقين مبادئ اللغة والخط والحساب .

الفصل التاسع

سنرافق الأخت ماري في إرسالياتها، لنتعرف من خلالها على حياة الراهبات المؤسسات:

في بلد العائلة المقدسة

تقع يافا الناصرة على رابية مطلّة على طريق حيفا – الناصرة، وتبعد عن البلدة الأخيرة ثلاثة كيلومترات. وكان البيت الذي سكنته الأخت "ماري"، مكونا من غرفة واحدة، لكل من أغراض النوم والطهو والأكل واستقبال الضيوف. وبعكس ما نتوقع، فقد أظهرت الراهبة ارتياحا شديدا لذلك الضيق. وكتبت تقول: "في فقرنا وضيق محلنا كان سرورنا وتعزيتنا." وقالت مرة للأب يوسف:" ليس شيء أحلى واهنأ من عيشة الفقر." وقالت مرة لكاهن الرعية:" لا تحزن علينا، فنحن نقول "أبانا الذي في السماوات وهو يرزقنا."

ولكثرة ما رأى الشعب الراهبتين وهما تتلوان السبحة، لا سيما في الطريق، لقبتا براهبتي "السلام عليك". وقد تغلغلت روح الصلاة بين النساء رويدا رويدا. وكنّ في السابق ينفرن من الصلاة، ويستثقلن

حتى إشارة الصليب، بحجة أن ذلك "يوجع اليدين"، كما أن أجراس الأحد كثيرا ما قرعت سدىً. وكان لا بدّ للراهبتين من التجول بين البيوت لدعوة الناس إلى قداس الأحد، مع أن الكنيسة على بعد خطوات.

المسبحة الخارقة

وفي يافا الناصرة، أجرت العذراء أعجوبة، لتقوي إيمان الشعب وثقته بها. وتروي الأخت ماري بأنه في 24 حزيران 1886 ، انتهى إعمار الدير الجديد، فوجب تنظيف الأرض من الشيد. فأرسلت الراهبتان الفتيات لنقل الماء من بئر الدير، التي طفحت من جراء الأمطار الغزيرة. وأثناء نشل الماء سقطت إحدى الطالبات في البئر وكان اسمها نظيرة.

هرع الجيران إلى البئر بناء على صراخ الفتيات، وقرع معلم المدرسة الجرس لعل أحد الرجال يتطوع لإنقاذ الفتاة. ولكنَّ البئر كانت عميقة. فأنزل أحدهم حبلا وألقاه في البئر، ولما انحنى رأى الفتاة تطفو على سطح الماء مرتين متتاليتين. فأمرها بان تمسك بالحبل ولكنها لم تفعل لأنها فقدت الوعي، وغاصت في القاع وأصبحت أثرا بعد عين.

وبينما كان الرجال يجدّفون على اسم الله، ويهددون الراهبتين، والنساء يبكين ويشتمن، مضت الأخت "ماري" بالطالبات إلى الكنيسة لصلاة السبحة من أجل إنقاذ الغريقة، وبعد قليل، خرجت باتجاه البئر ماسكة سبحتها، معلقة عليها كل أملها ورجائها، فتنبه إليها أحد الرجال وراح يوسع الراهبة وسبحتها شتماً، ثم ركلها برجله فهوت على جنبها الأيسر. وقامت رغم ذلك نحو البئر وألقت فيها سبحتها صارخة بإيمان:

– "يا مريم أخرجيها وأعينينا في هذه المحنة. "

وكان قد مضى على الفتاة نحو الساعة وهي في قاع البئر. وبعد ذلك، عادت أدراجها إلى الكنيسة تواصل رفع الابتهالات أمام القربان الأقدس، ولم يمض وقت طويل حتى نادتها الأخت كاترين:" تعالي تعالي، فإن نظيرة خرجت من البئر، والمسبحة في عنقها، ويداها ممسكتان بالحبل الذي رموه لنشلها به".

ولمّا سئلت الفتاة عما جرى لها في البئر أجابت ببراءة: " رأيت سبحة مضاءة التفت حول عنقي.

فاستضاءت كل البئر بمثل ضوء الشمع. فرغبت في أن أبقى هناك على الدوام. وسمعت صوتا يقول لي:" امسكي بالحبل، فأمسكت به، وها إني آسفة لخروجي من البئر".

واقتنع الناس بجدوى إكرام العذراء، فتسابقت النساء إلى دخول " أخوية الوردية". أما نظيرة فقد أحبت الراهبتين حباً كبيراً، ولم تكن ترضى أن تصلي الا برفقتهما.

الفصل العاشر

في بلدة الرعاة

انتقلت الأخت "ماري" إلى بيت ساحور، هي والأخت اليصابات بطرس، لتفتح مدرسة للفتيات. وسكنتا غرفة سيئة الحال، ولكنَّ العزاء كان في فرح الشعب بهما، واجتهاد الطالبات، وسخاء كاهن الرعية، الذي بذل كل طاقته في سبيل ترميم البيت الجديد.

وانحبست الأمطار في إحدى السنين، وعطش أهل البلدة، وصاروا ينقلون ماء الشرب من عين أرطاس بثمن باهظ. أما الخبز، فكانت ترسله الأم روزالي من القدس. ولسوء المواصلات، كثيرا ما تأخر الخبز، فنامت الراهبتان على الجوع. وحتى لو تطوع أحد لإحضاره، فلم تكن الأرغفة تصل كاملة، لأن الناس كانوا جياعا، واعتاد حامليه أن يسدوا جوعهم منه.

وكانت الأختان تقدمان هذه التضحية المفروضة، للحصول على بركة السماء. والحق يقال: إن هذه الإرسالية، جعلتهما تتشبهان بفقر السيد المسيح المولود بالقرب منهما. وكان عملهما اليومي تدريس 45 طالبة، والعناية بالمرضى دون تمييز طائفي. وشملت عنايتهما عشائر التعامرة الفقيرة. وكانوا وهم في طريقهم إلى بيت لحم، يمرون بدير الراهبتين لمعالجة أطفالهم المرضى.

سرعة طاعتها

ولما انتهى ترميم البيت المخصص لسكنى الراهبتين، تسلّمت الأم "ماري" في نفس الليلة، ورقة الطاعة لتسافر حالا إلى السلط. وتذكّرت أن البطريرك كان قد وعدها بإرسالها إلى هناك، عندما زارها في بيتها الوالدي قبل انضمامها إلى راهبات الوردية. وتذكّرت أنها كانت قد شاهدت نفسها، خلال حلم

غريب، تحلق بصحبة البتول فوق نهر الأردن، وتنزل بين مضارب البدو. فرأت في تعيينها الجديد إرادة السماء واضحة لا غبار عليها.

لقد اعتادت راهبتنا المطيعة، تنفيذ أوامر الرؤساء بسرعة فائقة. وما كان أحلى الطاعة على قلبها. فقامت من فورها تجمع متاعها القليل، استعداداً للسفر صبيحة اليوم التالي.

إلى شرق الأردن

كانت الطريق بين القدس وغور الأردن مليئة بقطّاع الطرق المتربصين بالقوافل. وما أشبه الليلة بالبـــــارحة، فتلك البقعة بالذات، سبق وأن كانت مسرحا لسطوات اللصوص، الــذين ورد ذكرهم في مثل "السامري الرحيم". وكان على الأخت "ماري" أن ترافق قافلة تحميها من مخاطر الطريق، وتوصلها إلى السلط. وتقرّر أن تذهب معها الأم روزالي، وراهبتان، والسيد يعقوب الصاع، المعلم في مدرسة الذكور، وأربعة رجال أشداء.

بين مضارب البدو

بينما كانت القافلة تمرّ بوادي القلط، جفلت الدابة التي كانت تقل الأم روزالي وطرحتها أرضا. فانخلعت كتفها وأغمى عليها من الألم. واضطرت القافلة، وقد خيّم الظلام، أن تستنجد بالبدو الذين كانوا يضرمون ناراً لاحت لهم من بعيد.

وأحسن شيخ القبيلة استقبالهم، واستدعى مُجبِّراً من قبيلته لرد كتفها. فتكللت العملية بالنجاح واستعادت الراهبة وعيها. وأثناء الليل، أرسل الشيخ زوجته لتنام في خيمة الراهبات. لكنهنّ لم يعرفن طعم النوم بسبب كثرة الحشرات القارصة من ناحية، ولهطول أمطار مفاجئة أثناء الليل، أحدثت فيضانا بلَّل الفراش وجرف الخيمة. فهبّ البدو لمساعدتهن.

وكان لهذه المغامرة أثر طيب، عرّف الراهبات مزايا البدو، مثل الشهامة والضيافة. فبرهنوا أنهم ليسوا قطاع طرق، وأن بينهم سامريين صالحين كثيرين.

الفصل الحادي عشر

في قلب البلقاء

أتى لاستقبال الراهبات لدى دخولهنّ السلط رجال البلدة، وبعض ممثلي الحكومة، يتقدمهم الأب "يوسف غاتي" كاهن الرعية. ولدى افتتاح المدرسة، بلغ مجموع الطالبات مائة وستاً وأربعين طالبة. وأسست الأخت "ماري" فرقة بنات مريم، وفرقة أخرى للأمهات المسيحيات انضمت إليها للحال ست وثمانون سيدة.

وكانت نساء السلط يذهبن للصلاة في الأعياد فقط، وبات من الصعب على كاهن الرعية الوصول إليهن لتعليمهنّ المبادىء الدينية. ومن رواسب تخلّفهن الروحي الحوار التالي، الذي دار بين الراهبات وبعض النساء، صباح عيد الفصح. سألت الراهبة:

- متى اعترفتنّ بخطاياكن؟
- لا ندري ما الإعتراف، وكل ما نعلم، أننا نأتي ونتناول مرة في السنة.
- لكن هل صمتن على الأقل منذ منتصف الليل؟
- لا نعرف صيام الليل. إنما أكلنا طعاما صيامياً: خبزاً وسماقاً. ولم نفعل كغيرنا من اللواتي أكلن لبناً وجبناً، ثم تقدمن للمناولة. وعندما حثّتهنَّ الراهبات على الإعتراف، كان الجواب:
- نريد أن نعترف للراهبات، ولكن ليس للكاهن.

واقتربت إمرأة من الأم "ماري" وقالت لها: "لك أعترف بكل شيء فعلته: سرقت لكي أطعم أولادي، أسأت إلى الناس بلساني، أبغض سلفتي، ولا أصفح عن عدوي ....."

وحاولت الراهبات إقناع النساء بعدم الذهاب إلى العرّافين والمشعوذين. وكنّ يلجأن إليهم لطرد الأرواح الشريرة، والتنبوء بالمستقبل، واكتشاف الأغراض المفقودة، أو لإبعاد مصيبة وإيقاع آخرين فيها. وكم عانت الراهبات وهنّ يقاومن تلك العادات.

الفصل الثاني عشر

العودة إلى فلسطين

بعد سنتين من استقرار الراهبات في السلط، اقترح الأب يوسف طنوس، نقل الأخت "ماري" إلى نابلس، لتجلب معها بركات السماء إلى تلك الإرسالية، ولتعلّم في مدرستها الناشئة. ولكنّ وباء الطاعون اجتاح المدينة، ولم تنج منه الأم "ماري". وتفاقمت حالتها الصحية حتى أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الموت، فنقلت بسرعة إلى الدير الرئيسي في القدس.

وفي المدينة المقدسة، عانت من شدّة المرض، وتألمت لعدم تفهم أخواتها لها، وتذكّرت أن العذراء القديسة، كانت قد نبهتها، إلى أنها سوف تتألم كثيراً على الأرض، حتى من أخواتها. وكانت العذراء قد وعدت برناديت وعدا مشابها، حين ظهورها لها في لورد (فرنسا) قائلة:

- لا أعدك بالسعادة على هذه الأرض بل في السماء.

وكانت تتألم صامتة، وتقدم تضحيتها للرب، من أجل نجاح الرهبانية الغالية على قلبها. ولما تعافت من مرضها أُرسلت إلى الزبابدة.

الدير الجديد

في سنة **1877**، كانت العذراء قد أنبأت الأخت "ماري"، بأن دير الوردية سيكون في طور البناء بعد **15** سنة، وأنه سيأخذ شكل مسبحة مستديرة.(انظر صفحة **22**)

وبما أن البيت الذي اشتراه البطريرك منصور براكو، أصبح يضيق بالراهبات، لتزايد عدد الطالبات والمبتدئات، اشترى الأب يوسف أرضاً في منطقة ماميلا (مأمن الله). وفي سنة **1889**، وضع حجر الأساس لبناء دير الوردية، وسار العمل ببطء لقلة الموارد المالية. ولمّا توفي المؤسس سنة **1892** كان العمل قائماً، وكم تمنى مشاهدة نهايته. وهكذا تحقق فعلا وعد العذراء، بأن الدير سيكون بعد **15** سنة في طور البناء.

الفصل الثالث عشر

وفاة المؤسس

قضى الأب يوسف طنوس سني حياته في العمل الدؤوب، وحمَّل نفسه من الأعباء أكثر مما تطيق حتى خارت قواه. وسنة 1892 أصيب بمرض في كليتيه، فتورمت يداه ورجلاه. فأوصى له الأطباء بقسط من الراحة في مسقط رأسه الناصرة. وذهب إلى هناك وهو شاعر بأنه لن يعود إلى القدس حياً.

وقبل وفاته بأيام، كان يزوره الأهل وراهبات الوردية، ويعجبون بصبره واحتماله. وقال مرة قبل المناولة لمن حوله: "لا أرغب الا في اقتناء قلب رحب فسيح يتسع للعالم كله فأحب الله الحب الذي يستأهله. يا للعجب، كيف أن رب السماوات والأرض، لا يأنف من أن يأتي إليّ، ويجعل ذاته طعاما لإنسان حقير مثلي."

وكان يشجع الذين من حوله قائلا: "كنت في الماضي أفزع من الموت، وكثيرا ما سمعت أنه مرّ المذاق. غير أني الآن هادئ النفس ولا أشعر بأي ألم أو اضطراب."

وصيته الأخيرة

وترك لراهبات الوردية وصيته الأخيرة، وجاء فيها: "لقد شاء الله أن أفارق الدنيا، فلتكن مشيئته ومن يديه أقبل الموت راضياً مطمئناً. أما أنتنّ، فلتكن ثقتكنّ بالرب كبيرة، فهو لن يترككن. وإني أستودعكنّ بين يدي العذراء سيدة الوردية. وكنّ على يقين من حمايتها ومؤازرتها. ومتى ذهبت إلى السماء، سأكون أنفع لكنّ من بقائي على الأرض".

والتفت إلى الأم حنة وقد أصبحت الرئيسة العامة للرهبانية فقال لها: "كوني حقا حانية على جميع الراهبات. علميهنّ المحافظة على القوانين بدقة، وكم أتمنى أن تنمو فيهنّ الروح الرهبانية". والتفت إلى والدته العجوز، وطلب بركتها وطلب أيضا بركة الكهنة الحاضرين.

لقاء أخير مؤثر

ولمّا سمعت الأم "ماري" أن الأب "يوسف" في طور النزاع، أتت على عجل تودّعه الوداع الأخير. ولمّا وصلت طلبت بركته. وكان الأب يوسف يريد هذه المقابلة، ليأتمنها على رغبته الأخيرة. فمنذ وفاة البطريرك براكو، لم يبق أحد سواهما على علم بأسرار العذراء وإيحاءاتها. وعمّا قليل ستنفرد الراهبة بحفظ تلك الأمانة المقدسة.

وكان يعلم كم عانت الأخت "ماري" في الماضي، وكم ستتألم في المستقبل، فقال لها بإشفاق "واحسرتي عليك إن كنت ستعيشين طويلا بعد موتي، لأنك ستلاقين عذابا شديداً".

فأجابت بكل عزم وسخاء: "لا أبالي بالعذاب، فأنا ذبيحة الوردية. وكل ما أريده هو سعادتك في الديار السماوية. وإن راحتك راحتي." ثم أردفت بعد أن مسحت دمعة عن خدّها: "إن أمنا الحبيبة التي خدمتها في حياتك، ستأتي وتساعدك في هذه الساعة." فقال: "أهلا بالموت ومرحبا، إنه ليس صعباً، لكنّ مريم أبطأت. فمتى ستأتي يا تُرى؟"

وبعدها أعياه الداء وأنهك قواه. وآخر كلمات تلفّظ بها لسانه كانت: "بين يديك يا رب أستودع روحي ." وأسلم روحه الطاهرة في **30** أيلول عام **1892**، وله من العمر أربعة وخمسون عاماً. وفي اليوم التالي، أقيمت مراسيم دفنه في كنيسة الناصرة الرعوية. وخرجت المدينة كلها في موكب جنازته، لأنه كان موضع احترام الجميع.

الفصل الرابع عشر

في ظلال المهد

طلب البطريرك "بيافي" من الأخت "ماري" أن تؤسس في بيت لحم ميتماً للطالبات. وكانت هذه أيضاً رغبة المؤسس، إذ سمعتها منه شخصياً قبل وفاته. وتم تعيينها في مدينة المهد هي وراهبة أخرى. وسكنتا بيتا فقيراً، وكانت الأخت "ماري" تقدم فقرها لله، تعويضاً عمّن لا يلتزمن الفقر في رهبانيتها. وكانت تفرح لاشتراكها في فقر العائلة المقدسة.

ومنذ اليوم الأول أقبلت أفقر فتيات بيت لحم، وعلّمتهنّ مبادئ القراءة والكتابة، ودربتهنّ أيضا على أعمال الخياطة والتطريز وصنع المسابح. وبلغ عدد عاملات المشغل خمسين فتاة.

أعمال خارقة

وحدث أن صنع الله عجائب بفضل صلاة الأخت "ماري". مرضت عقيلة السيد حنا قطان، وكفّ بصرها، وعجز الطبيب "باكر" عن شفائها. زارتها الأم "ماري"، ولشدة إيمانها بالعذراء القديسة وضعت مسبحتها في كأس ماء، وقطّرت منه عيني المرأة الضريرة، فأخذت تتماثل للشفاء. وبعد أيام استعادت كامل بصرها، وتمكّنت من الوصول إلى الكنيسة. ونقرأ عن هذه الحادثة في مذكرات الأم "ماري".

ومرة أخرى، ذهبت الأم ماري لتسعف بصلاتها مريضا يحتضر، وما لبث أن لفظ أنفاسه الأخيرة. وأخذ أهله ينوحون ويصرخون، وخرج كاهن الرعية للحال. وكما فعلت سابقاً، تناولت الأخت "ماري" ماء بعد أن غمست مسبحتها فيه بإيمان، ثم سكبت في فم المريض بعض القطرات من "ماء المسبحة" وهي تدعو اسم العذراء. وكان اسم الرجل جبرائيل دبدوب. وفجأة أخذ الرجل يتجرع الماء ودبَّت فيه العافية. وكان شفاؤه من مرضه كاملا. وعاش أربع سنين بعد وفاة الأم "ماري".

وكانت النعم أيضا من نصيب الميتم نفسه. وكلما كان ينقصه مال أو مؤونة، كانت السماء تتدخل لإسعاف الراهبتين والفتيات. وذات مرة، بينما كانت تصلي في مغارة المهد، ناولتها سيدة مبلغا من المال، كان الميتم في أشد الحاجة إليه. وزارهنّ مرة ضيف غريب، وهو محمّل بشتى أنواع الفاكهة والخضراوات وبكمية كبيرة، وفي وقت لم يكنّ يملكن المال لشرائها.
إلا أنها طيلة تلك المدة، لم تتوفق في إيجاد مقر ثابت بل كانت تنتقل من بيت إلى آخر بحثا عن الأنسب والأفضل. وكانت تعدّ نفسها محظوظة لاقتدائها بالعائلة المقدسة، التي أتت بيت لحم ليلة الميلاد،

وقرعت أبواب الناس، لأنه لم يكن لها بيت. ولمّا استدعتها الرئيسة العامة إلى الدير الرئيسي، كانت لا تزال تبحث عن بيت جديد، تنتقل إليه مع الفتيات اليتيمات.

الفصل الخامس عشر

اختلاء وتأمل

بعد 15 سنة من العمل الدؤوب في بيت لحم، انتقلت الأم "ماري" وهي في السبعين من عمرها إلى القدس. وهناك أمضت بضع سنوات في الصلاة والتأمل.

تواضعها

سبق أن تحدثنا عن حيائها الشديد وهي طفلة، بسبب حول واضح في عينيها، أفقدها نعمة الجمال. ولكن شعورها بالحرمان تحول تدريجيا إلى فضيلة تواضع.

والحقّ أنّ الراهبة كانت تكره الظهور والغرور، ولا ترغب الا في العمل الصامت المجدي. وصار اكتراث الناس لها أو عدمه سواء بسواء.

ومن المؤسف أن زميلاتها، حديثات العهد بالرهبانية، لم يحترمن دائما شعورها، بل كنّ يسخرن أحيانا من منظر عينيها. وكانت تقابل السيئة بالحسنى والإهانة بالبشاشة والصبر. .

جمال نفسها

الجمال الجسماني المحسوس ليس القيمة الأولى في الحياة، ويفوقه جمال النفس الخالدة، المخلوقة على صورة الله ومثاله. وإذا كانت النفس جميلة مشرقة، فان شيئا من إشراقها سينعكس حتما على وجه صاحبها. وهذا ما حدث مع الأم "ماري"، الأمر الذي كان قد جعل طالباتها في بيت لحم، ينجذبن إليها انجذاباً عفوياً. وكانت تلك الموهبة الفائقة للطبيعة، تؤثر فيمن حولها، وتقرّبهم إلى الله. وفي أيام كهولتها، كانت توحي إلى كل الدانين منها، بأن الله حاضر فيها، وأنها حاضرة في الله .

الأم ماري والمسبحة

بعد اعتزالها حياة العمل والنشاط أضحت الأم "ماري" نموذجا للحياة التأملية. فلم تكن السبحة تفارق يدها. وكان التأمل في أسرارها غذاءها الروحي. وهمست مرة في أذن أختها الأم حنة قائلة: "ليتك ترين ما أرى" ! غير أنها لم تكمل حديثها مخافة أن تبوح بسرِّها .

وحاولت بكل وسعها، ترغيب الراهبات في تلاوة "المسبحة الدائمة" وفقا لرغبة العذراء الصريحة. ولكنها لم تجرؤ على كشف مصدر الإقتراح، بل اكتفت بان تقول لأختها ببساطة: "ستسرّ والدة الإله المحبوبة إذا أقدمنا على تلاوة المسبحة الدائمة في الدير". وقوبلت الفكرة بالرفض والاعتذار، لانشغال الراهبات المستمر، وقلة عددهنّ. أما هي، فلم تكن تلح أكثر من ذلك، بل ظلّت تحاول التعويض بنفسها عن ذلك الفراغ، بصلاة متواصلة .

الفصل السادس عشر

بين الأرض والسماء

أرسلت الأم حنة أختها "ماري" عام 1917 إلى عين كارم، ولها من العمر 74 عاماً لافتتاح ميتم للفتيات. فغادرت القدس راضية كل الرضى، لأنها ستكرّس قواها الأخيرة في خدمة المحبة. ولكنّ صحتها بدأت تخور، فأخذت الأم حنة مكانها، وهكذا أتيح لها العودة إلى الحياة التأملية، إلى جانب قيامها ببعض المهمات البسيطة، أما ما بقى من وقتها فكانت تقضيه في الكنيسة.

واعتاد الباحث عنها أن يلقاها تصلي هناك. ولدى سماعها لأي نداء، كانت تبرح مكانها مسرعة، مفارقة الربّ من أجل الربّ، تاركة عبادته من أجل خدمته في شخص القريب. وبعد تأدية ما عليها، سرعان ما كانت تحتل مكانها السابق أمام القربان الأقدس.

"دعيها تصلي كما يطيب لها"

لم ترُق كثرة صلاتها لراهبة شابة اسمها الأخت كروبيم، التي اعتقدت أن من واجبها تنبيه الأم حنة إلى مغالاة أختها في العبادة. ولمّا فعلت عاجلتها الرئيسة بهذا الجواب: "دعيها تصلي كما يطيب لها". ولم تنس الأخت "ماري" أن العذراء أوعزت إليها يوما: "أريد أن تتلى في الدير الوردية الدائمة ليلاً ونهارا". لذا كانت تنهض عند منتصف الليل، وتتجه إلى الكنيسة لتصلي السبحة. وكثيراً ما أدركها الوقت ولبثت غارقة في الصلاة حتى قدوم الصبح.

قدرات خارقة

وكانت جميع راهبات الدير، يشعرن بوجود سرٍّ دفين لدى الأخت "ماري"، ويعتقدن أنّ صومعتها أشبه بمعبد صغير. ثم أنها تمتعت بعض الأحيان بموهبة معرفة المستقبل وخفايا القلوب. فاستدعت قبل وفاتها الطالبة "لويز عبد" وأوصتها بالسهر على صحة الأم حنة، وأضافت: "سيبلوها المرض بعد موتي وستنجو منه في المرة الأولى، أما في الثانية فستموت." وقد جرت الأمور حسبما أنبأت.

وكانت أيضا على اتصال بالعالم الآخر، لا سيما بالنفوس المطهرية. وعندما توفي شقيقها الأب أنطون دانيل في 9 شباط 1925، كانت مريضة، فلم تتمكن من عيادته، لكنها عرفت اللحظة التي أسلم فيها الروح، ولما أخذت الأم حنة تبدي أسفها لموته، عزّتها قائلة:" لِمَ تبكين؟ قد أبصرت أنطون في قلب المسيح، إنَّه في السماء."

نداء الرب

وفي 19 آذار 1927 أُصيبت بنكسة قوية، فقد طبيبها كلَّ أمل من شفائها. وساءت صحتها، وراحت الراهبات يتناوبن السهر عليها، ولم تكن تقطع صلاة السبحة الا لتردّد اسم يسوع ومريم.

وفي 25 آذار ، قالت لأختها وقد أمضت سواد الليل إلى جانبها: " لا داعي لبقائك الآن، وأولى بك أن تذهبي لحضور القداس، والدعاء لأجلي، لأني لن أموت قبل الساعة العاشرة." وبعد القداس استدعت أختها وقالت لها: "هلمَّ نودّع إحدانا الأخرى، فلم يبقَ أمامنا سوى ثلاث ساعات نقضيها معاً." وبعد قليل شدَّت على يد أختها وأضافت: "دنت ساعتي الأخيرة، فلنتل الوردية مرة أخرى." وانضمت إليهما شقيقتهما ريجينا، وواصلن حتى السرّ الرابع عشر، الذي يشير إلى انتقال العذراء إلى السماء. وفي آخر "سلام" منه كانت المحتضرة لا تزال تنطق بوضوح: "صلي لأجلنا نحن الخطأة، الآن وفي ساعة موتنا.." وما لبثت أن أسلمت الروح، وماتت، كما عاشت، ابنة أمينة لمريم. وحقا يموت البشر كمايحيون.

الوصية

وقبل وفاتها كانت الأم "ماري" قد دوَّنت بعض الكلمات على قصاصة من الورق وجدت بعد مماتها وكانت وصيتها الروحية:
"باسم الآب والابن والروح القدس. آمين. إرحمني يا الله كعظيم رحمتك. وكمثل كثرة رأفتك امح مآثمي. يا نفسي، استودعي ذاتك بين يدي مريم سلطانة الوردية أمك. واتحدي بقلب يسوع عروسك إلى دهر الدهور، آمين.

إنِّي أموت مسيحية وراهبة وردية حقيقية. وأرجو مغفرة خطاياي باستحقاق دم يسوع الثمين. وبشفاعة أمي سلطانة الوردية المقدسة والقديس يوسف، إني أتكل على صلوات أخواتي في الرهبانية وعلى الثلاثة والثلاثين قداساً التي ستقام بإذن الرؤساء لراحة نفسي، باسم يسوع ومريم . آمين.

الأخت ماري ألفونسين
راهبة الوردية المقدسة

وسجي جثمانها في ردهة دير عين كارم، وأتت أخواتها الراهبات فوجاً فوجاً، ليصلين بقربه، ولإلقاء نظرة أخيرة على تلك التي نذرت لهنّ قلبها وروحها حتى النسمة الأخيرة. وكان الجميع يقرأون على ملامح وجهها سمات الوادعة والهدوء، حتى أن النائبة العامة الأم أنونسياتا، لم تتمالك عن أن تصرخ تلقائياً: "ما أجملها! كأنها ليست بالأم ماري. "

وفي اليوم التالي نقل جثمانها إلى القدس، ودفنت في كنيسة الوردية.

ساعة الحقيقة

قبل وفاتها، أخبرت الأم "ماري" أختها عن وجود دفترين يحويان أمورا يجب اطلاع البطريرك عليها بعد موتها. وبالفعل، وجدتهما في المكان المشار اليه مختومين بالشمع، وسلمتهما إلى البطريرك. فانكشفت الحقيقة أمام الجميع. وآنذاك فقط، قدَّرت جميع الراهبات فداحة الخسارة التي حلت بالجمعية، لوفاة تلك الراهبة المسكينة، واكتشفت الأم حنة أنها كانت مدينة لأختها بدعوتها الرهبانية. وعرفت لماذا كان المؤسس يحترمها بشكل مميز. وفهمت سرّ تمثال سيدة الوردية، الذي وضعه الأب يوسف طنوس بحفاوة بالغة، فوق الدرج المؤدي إلى دار الابتداء، والذي كان تجسيما للعذراء كما ظهرت للراهبة .

وأهم مفاجأة حصلت هي التعرف على المؤسس الحقيقي للرهبانية: لم يكن الأب "يوسف"، ولا حتى الأم "ماري"، وإنما العذراء نفسها. وفهمت، قول أختها لها في إحدى المناسبات: "ما أشد ما سيكون فرح والدة الإله المحبوبة، لو أقدمنا على تلاوة الوردية الدائمة في الدير" .

درب القداسة هو درب الصليب

سنورد شهادتين، تكشفان لنا شيئا عن محبة الأم "ماري" للقريب، وتواضعها العميق. صرّحت الأخت فرنشيسكا، إحدى راهبات الوردية: " كان لي الحظ أن أعيش ست سنوات في بيت لحم، برفقة الأم "ماري" وتمكنت خلال تلك المدة، من الاطلاع على فضائلها، لا سيما فضيلة المحبة. وأجزم بأني لم أسمعها قطّ، تطعن في صيت القريب. وقد أعجبت بصفتين أخريين هما: "حبها للمساعدة واكرامها لسيدة الوردية. ولم تكن تكفّ عن تلاوة المسبحة، كلما سنحت لها الفرصة ولا سيما برفقة الصغار."

ومرة أُخرى، كانت تصلي في كنيسة بيت لحم الرعوية، وهي جالسة على الأرض كعادة عجائز بيت لحم. وهذا المشهد يدل على شديد بساطتها. الا أن الأب ليزيكي المتشدد ما كاد يراها حتى لامها

وأوعز إليها بحدة أن تنتقل إلى المقعد المجاور. فأذعنت للأمر دون أن تنبس ببنت شفة. أما الراهبة التي كانت ترافقها فقالت متحدية:

– "لو كنت مكانك لعرفت ما أجيب به. فكيف تصبرين على ملاحظته القاسية؟" فردَّت عليها بهدوء ووداعة:

– "ألا تعلمين أن علينا أن نشتري الجنة بالتواضع ؟ "

ولم يتسرب الحقد إلى نفسها مطلقا، بل سرعان ما كانت تصفح عن الإساءة، وتقابلها بالحسنى وكأن شيئا لم يحدث. كما كانت السبَّاقة إلى تحية الراهبات، دون أن تنتظر مبادرة إحداهن، رغم أنها كانت أكبرهنّ سناً .

وإن وراء هذه الشخصية الرائعة، في بساطتها وشفافيتها، مبادئ عاشت وماتت عليها. ومن حسن الحظ، أننا وجدنا بعض هذه المبادئ مكتوبة بخط يدها، على قصاصة بالية من الورق. وها كم بعضها:

- "يا يسوع دعني أهيم في حبك."
- "الحب قوي كالموت، الحب يجعلنا نقدّر الفقر، ونصبر على الجوع والبرد، ونُسّر بالإهانة، ونرضى بالمرض، ونقاوم التجربة، ونحتمل الاضطهاد."
- " الحب يحث على مساعدة القريب في جميع احتياجاته."
- " يا لتعزية النفس التي تجتذب قلوب الآخرين إلى محبة الله."
- " في محبة يسوع ومريم، توجد السعادة والسلام والفرح الحقيقي، ولا سيما الصبر والشجاعة والثبات."
- " يجب أن نملك فضيلة عظيمة لكي نعطي منها للآخرين."
- " الكفر بالذات، يجلب النعم العظيمة، كالرغبة في الصلاة المستمرة، ووداعة القلب، والفرح الداخلي، والاتضاع الحقيقي، والإقتداء بمعلمنا الإلهي، الذي عاش في الأماكن التي نعيش فيها."
- " يجب أن نسعى إلى القداسة، وأن نجذب اليها كل إخوتنا في المسيح."

من ثمارهم تعرفونهم

تحتفل الوردية عام 1985 بيوبيلها المئوي الأول. والشجرة تعرف من ثمارها. وها إن حبة الخردل الصغيرة، التي بذرتها العناية الربّانية في أرض القدس قبل مئة عام، أصبحت شجرة كبيرة، تمد أغصانها إلى مناطق كثيرة، وتظلل مشاريع هامة. وقد بلغ عدد الراهبات اليوم، مائتين وستاً وسبعين راهبة. وكلهنّ عربيات من لبنان وسوريا والأردن والضفة الغربية والجليل.

في مجال التربية والتعليم، تشرف الجمعية على مدارس كثيرة، ابتداء من رياض الأطفال، وانتهاء بالمرحلة الثانوية والتدريب المهني للفتيات.

وعلى الصعيد الإنساني، تخدم الراهبات المرضى، في عيادات صحية ومستشفيين هامين. ومن الناحية الرعوية تؤمّن المؤسسة خدمة معظم إرساليات البطريركية اللاتينية. وبما أنها أبصرت النور في أحضانها، فقد نذرت نفسها لخدمة إرسالياتها على ضفتي الأردن والجليل. ففي الضفة الغربية، تخدم الراهبات الرعايا التالية: الزبابدة، بير زيت، بيت ساحور، جفنا، رفيديا، الطيبة، عابود، بيت جالا، وغزة.

أما في الجليل فنجدهن في يافا الناصرة، الرامة، الرينة والجش.

ويجدر بالذكر أن للراهبات أديرة في لبنان في الرعايا التالية: شرتون، القعقور وعين دارا.

وفي الأردن تعمل الراهبات في إرساليات السلط، الفحيص، مادبا، الحصن، الكرك، السماكية عجلون، المصدار، الرميمين، المفرق، الزرقاء، إربد، ناعور، ماركا، جبل اللويبدة، والعقبة.

وفضلا عن انتشار الرهبانية في الإرساليات السابقة، حيث يعلّمن التعليم الديني، ويخدمن الكنيسة ويشرفن على نشاطات الشبيبة، فان للجمعية مشروعات أخرى مستقلة، منها ما هو ضمن حدود الأبرشية ومنها ما هو خارجها.

ففي ماميلا، حيث كنيسة سيدة الوردية الرائعة في الجمال، بيت للضيوف، ومدرسة داخلية لتربية الأطفال اليتامى.

وفي بيت حنينا، وعلى رابية جميلة تطل على طريق القدس رام الله، شيّدت الرهبانية ديرها الرئيسي حيث تقيم الرئيسة العامة. ويضم الدير معهدي الطلب والإبتداء، وبيتاً للراهبات المسنات.

وبجواره مدرسة ثانوية كاملة ازدهرت بسرعة منذ سنة 1970. وفي بيت لحم وعين كارم مدرستان ابتدائيتان، وفي كل منهما قسم داخلي للأيتام.

وتدير الراهبات مدرستين إعداديتين مزدهرتين في المصدار وجبل عمان. أما مدرسة إربد فقد تحولت إلى مدرسة ثانوية. وتعد مدرسة الشميساني ثانوية نموذجية تضم حوالي 2148 طالبة.

وتدير الراهبات في لبنان مدارس ابتدائية وإعدادية وثانوية في قرنة الحمراء وسن الفيل وجبيل. وتحوّلت مدرسة بيت مري الابتدائية إلى "دار طلب" وتذهب "طالبات الترهب" للدراسة في مدرسة المنتزه، التي أصبحت ثانوية نموذجية تضم حوالي 969 طالبة.

وفي مجال الخدمة الإنسانية، تشرف الراهبات على عيادة صحية في القدس القديمة، في الدير المحاذي للبطريركية اللاتينية. وفي مدينة إربد الواقعة شمال الأردن والتي اشتهرت بجامعتها الجديدة، بَنَت الرهبانية مستشفى كبيراً يتسع لـــ 120 سريراً، ويضم مدرسة للتمريض. وفي جبيل، تخدم الراهبات في مستشفى سيدة المعونات وفيه 100 سرير. ومن الجدير بالذكر، أن 10 راهبات خدمن بروح مسكونية في مستشفى القديس جورج للروم الأرثوذكس في بيروت، منذ سنة 1973 وحتى اندلاع الحرب اللبنانية، وتركنه على أثر الحوادث الأخيرة في لبنان.

وفي الخليج العربي النائي عن مسقط رأس الجمعية، أنشأت الراهبات مدراس على جانب كبير من الأهمية، وذات مستوى علمي رفيع. وفي الكويت وأبو ظبي والشارقة حوالي 7 آلاف و570 طالبة في مدراس الوردية.

وسبق أن خدمت راهبات الوردية في سوريا، فعلّمن في خبب منذ سنة 1911 حتى 1916، وفي القنية منذ سنة 1947 حتى سنة 1950، وفي اللاذقية منذ سنة 1950 وحتى سنة 1958. وقد أتت تلك النشاطات، رغم قصر مدتها، بثمار مرضية على صعيد الدعوات. وكانت الحصيلة انضمام 18 فتاة سورية إلى الوردية ومعظمهن من اليعقوبية والقنية.

وتتطوع الرهبانية للخدمة حيث يدعوها الواجب، وتسمح لها إمكانياتها دونما تمييز، سواء في حقل التعليم أو التمريض. فمدارس الوردية تضم طلابا وطالبات من مختلف المذاهب والجنسيات. كما عملت بعض الراهبات في مستشفيات تخص جهات متعددة، مثل مستشفى التوليد الحكومي، ومستشفى فلسطين والمعشر في عمان، ومستشفى المقاصد الإسلامية والهوسبيس في القدس، وفي الشيشير هوم في بيت لحم.

وقد قدمت الراهبات خدمات من خلال عملهن في الصليب الأحمر اللبناني، وجمعية جبل عامل جنوب لبنان. كما افتتحت راهبات إربد عيادات خارجية في بعض القرى المجاورة. وسبق ذكر مستشفى القديس جورج الأرثوذكسي في بيروت، ولم تكن هذه الخدمات دائمة بسب ظروف داخلية أو حتى خارجة عن إرادة الجمعية.

وللقيام بهذه المشروعات المتنوعة تحتاج الراهبات الى تأهيل مستمر. لذا تتخصص الراغبات منهن في الجامعات والمعاهد العربية والأجنبية. وتخرّجت عدة راهبات من جامعات لبنان والأردن والضفة الغربية في مجال العلوم الإنسانية والآداب والتمريض. وفي سويسرا تتخصص راهبتان في التربية الدينية لمدة سنتين ويتم ذلك بشكل دوري.

ولا يرتاب أحد في أن ازدهار الجمعية المطّرد، وقيامها بكل تلك الأعمال لخدمة الله والإنسانية وتطورها لمجاراة العصر الحديث، مع بقائها أمينة للمسيح، إنما يدل على حقيقة التدخل السماوي الذي سبق نشأة الرهبانية.

واخـــــــــيراً

قال القديس اغسطينوس: إن الزمان كلهّ حاضر . . . . وإنما بأبعاد ثلاثة:

- الماضي . . . . . ويصبح حاضراً بالذكرى التي تجعل الحوادث الماضية تطفو على السطح.
- الحاضر . . . . . ونتصل به من من خلال حواسنا ولا سيما النظر.
- المستقبل . . . . . ويصبح حاضراً بقوة الرجاء والأمل.

وبينما تحتفل الوردية بيوبيلها المئوي، وبعد أن أعدنا إلى الذهن ماضيها واستحضرناه بذاكرتنا، وفيما ننظر إلى واقعها الحالي، يبدو لنا وكأن أبعادها الزمنية الثلاثة، تلتقي على موعد في الحاضر، حيث نقرأ معنى اليوبيل، وهو: أن الله سيد الزمان، وهو نفسه حاضر الوردية وماضيها ومستقبلها،

وعنايته الأبوية التي باركت الوردية في السابق هي خير ضمانة للحاضر والمستقبل لأن الله أمين لا يمكن أن ينكر نفسه.
(2 تيمو 20 ، 13).

وهذه الأمانة الإلهية، التي نراها بعين الإيمان في حياتنا، وحياة المؤسسات هي نداء دائم، ودعوة جدية، تنتظر رداً عاجلا، لان مدى الحياة والعمر قصير نسبياً. وإذا كان التاريخ البشري حافلا بالسلبية فمردّه هو أن الإنسان لم يرتفع إلى مستوى الأمانة، نحو ذلك الذي يسّير كل شيء لخير الذين يحبونه.